مقياس:مدخل إلى علم الاجتماع **أ.حساين**

المحاضرة 2

ثانيا: تاريخ الفكر الاجتماعي (الفكر الاجتماعي في الحضارات الشرقية القديمة)

تمهيد:

منح الله عز وجل ملكة العقل للإنسان، فميزه عن كافة الكائنات الأخرى؛ بأنه كائن مفكر، وبناء على ذلك يمكن تعريف الفكر بأنه تلك القوة التي منحها الله تعالى للإنسان وكرمه بها وفضله بها وميزه على بقية الموجودات ليتمكن من مهام الاستخلاف، فمنذ أن استخلف الله عز وجل آدم عليه السلام على الأرض ومنذ أن نشأت الأسرة الأولى على الأرض بدأ الإنسان يفكر في كل الظواهر المحيطة به فحاول فهمها واستيعابها، فالفكر الإنساني يعتبر سلسلة مترابطة الحلقات، ففهم ظاهرة اجتماعية لا يتسنى إلا إذا تتبعنا جذورها الأولى.

فلا يمكن الحديث عن نشأة علم الاجتماع، كعلم مستقل له موضوعاته وقضاياه ومناهجه ونظرياته دون الكشف عن جوهر الفكر الإنساني الذي يعد بأصله فكرا اجتماعيا مرتبط بتاريخ الفكر الاجتماعي.

الفكر الاجتماعي: ويقصد به مجموعة من الآراء والتصورات والمعتقدات والمعاني التي صاغها العقل الإنساني حول ذاته، وحول الواقع الاجتماعي والطبيعي؛ بمعنى مجمل الظواهر الاجتماعية والطبيعية المحيطة بالإنسان. كما يتضمن الفكر الاجتماعي الرؤى التي طرحها العقل الإنساني عبر تاريخه الطويل حول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقته بعناصر البيئة الطبيعية من حوله وكذلك علاقته بالقوى العلوية التي اعتقد في قدرتها الخارقة على صنع الحوادث والمتأثر فيها [1]

- حسني إبراهيم عبد العظيم، في تاريخ الفكر الاجتماعي، مفاهيم أساسية (2015/06/25) الحوار المتمدن m.alhewar.org]

1

تعود بداية الفكر الاجتماعي المنظم إلى فترة نشأت الحضارات الشرقية القديمة، إذ قدمت أفكارا متعددة حول علاقة الإنسان بأخيه الإنسان، وعلاقته بالقوى العلوية، كما طورت الكثير من التصورات حول النظم منها السياسية والاقتصادية والإدارية وكذلك البناء الاجتماعي والذي يعتبر في مستواه العام، مرآة للمثل الاجتماعية التي يرتضيها المجتمع كأهداف غائية في العلاقات الإنسانية.

1- الفكر الاجتماعي فيحضارة بلاد الرافدين أو الحضارة البابلية:

تعد حضارة بلاد الرافدين من أقدم وأرقى الحضارات القديمة، حيث ترك فلاسفتها وحكمائها مجموعة كبيرة من الوصايا والإرشادات التي لا زالت من مقومات الحياة الاجتماعية ومن أهمها ما قدمه " **حمو رابي**" حيث قام بإنشاء أول مسلة عرفها التاريخ حيث دون فيها حوالي 282 مادة تعالج مختلف شؤون الحياة الاجتماعية والاقتصادية موضحا بدقة واجبات وحقوق الأفراد في المجتمع، كما اشتمل قانون **حمو رابي** على مختلف القواعد والأحكام القانونية كمبدأ التعويض ومبدأ القصاص ومبدأ عدم جواز التعسف باستعمال الحق الفردي ومبدأ القوة القاهرة، وكان حريصا على أن يعمّ الأمن والاستقرار في كل بلدان دولته وبهذا يحقق مبدأ العدالة والمساواة والإخاء الاجتماعي[1].

2- الفكر الاجتماعي في الحضارة المصرية القديمة أو الحضارة الفرعونية:

اهتمت الحضارة المصرية القديمة بالنظام الأسري كأساس للاستقرار الاجتماعي فحرص الحكماء المصريون على الأخلاق الفاضلة والمحافظة على العادات والروابط الأسرية والبر بالوالدين واحترامهما وتكريمهما " ومن تعاليم المفكر **آني** إلى ابنه **حوتب** يوصيه بمساعدة المسنين والفقراء

[1] إينظر،حسان محمد الحسن،عدنان سليمان الأحمد،المدخل إلى علم الاجتماع، ط2،دار وائل للنشر والتوزيع، عمان، الأردن،2009، ص 90-

والمحتاجين لأن النعمة لا تدوم ولأن الموت هو نهاية المطاف ولأن صاحب القلب القاسي لن ينال عطف الآلهة في الآخرة "[1].

والمتمعن في الحضارة المصرية " يرى بوضوح أن الفكر الديني المصري يمثل التطور المعروف في علم الاجتماع الديني وهو الاتجاه من عبادة الماديات إلى عبادة الروحانيات ثم من التعدد إلى وحدة الآلهة. فالمصريون القدامى بدأوا بعبادة مظاهر الطبيعة المادية لذاتها مثل النيل، الشمس، وبعض الحيوانات ثم انتقلوا من ذلك إلى تقديس هذه الآلهة بوصفها رمز للآلهة روحية ثم أخيرا أحلوا الوحدة محل التعدد على أثر ثورة **إخناتون**وما سبقها من مقدمات"[2].

ولقد أشار هيرودوت Hérodote إلى أن إيديولوجية المصرين القدماء مثلا كانت نوعا من التأييد للتنظيم الاجتماعي الذي تصوروه بالنسبة للدين، فإنشاء المملكة عندهم عمل من أعمال الآلهة. وفرعون كان بمثابة وسيط بين العالم السماوي والعالم الأرضي، اعتبر نفسه إلها، هذا ما جعله يكون في قمة البناء الطبقي ويلي هذه الطبقة طبقة الكهنة الذين يستمدون قداسة أعمالهم في المعبد ويخدمون فرعون باعتباره الإله، ثم تأتي طبقة الجيش وهم القائمون على حراسة المعابد ثم تليها طبقة الحرفيون، فنجد أن تصورهم للبناء الطبقي مرتبط إلى حد كبير بالنظام الديني والأفكار السياسية. كما تشير الوثائق التاريخية إلى أن الفكر الاجتماعي في مصر القديمة كان على وعي بنظام الملكية الذي كان يعتمد أساسا على حقوق إلهية، فالإله هو صاحب الملك والتصرف والكهنة هم من يقومون بخدمة الإله، كما كانت الجوانب التشريعية في المجتمع المصري متطورة إلى حد بعيد، ومن خلال هذه النظرة السريعة للحضارة المصرية يتبين لنا الفكر الاجتماعي الفرعوني الذي تمتع بالنضج والوعي السياسي إذ كانت له فائدة تاريخية للإنسانية.

ومما نخلص إليه أن الفكر الاجتماعي في الحضارة الفرعونية تميز بما يلي:

- ✓ هيمنة الفكر الديني: كان الفراعنة يستخدمون الدين لتبرير التفاوت الاجتماعي والطبقية

[1]-حربي عباس عطيتو، الفكر الشرقي القديم، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية،2005، ص 60
[2]-حسن شحاتة سعفان، تاريخ الفكر الاجتماعي والمدارس الاجتماعية، دار النهضة العربية،1965،ص 18-19

- ✓ انتقال المجتمع الفرعوني من النمط القبلي إلى تأسيس الدولة.
- ✓ سيادة القانون العام احترام مبدأ المساواة بين الناس.
- ✓ كان المجتمع الفرعوني مقسما إلى طبقات اجتماعية، في قمة الهرم نجد الفراعنة الحكام يمارسون السلطة السياسية، طبقة رجال الدين ويشتغلون في المعابد والمؤسسات الدينية، طبقة الجيش يقومون بحماية الدولة، طبقة الصناع، طبقة العبيد يقومون بخدمة الأرض والأعمال الشاقة.

3- الفكر الاجتماعي في الحضارة الهندية:

تعتبر قوانين "**مانو**" من أقدم التشريعات بالهند وتتألف من حوالي ثلاثة آلاف بيت من الشعر، منسوبة إلى شخصيته، تصورها النصوص بصورة إله صغير تلقى الوحي عن "**براهما**" نفسه، لقد اتضح أن هذه القوانين كانت من وضع جماعة البراهمة والتي من خلال تدوينها حاولوا على تعليم الأجيال القادمة أوضاع الحياة الاجتماعية وقواعد السلوك، ويتضح أن سلطة حكام الهند كانت سلطة ديكتاتورية، كما ارتكز هذا النظام على الاستبداد وفكرة الجزاء.

في حين يمتاز النظام الاجتماعي في الهند القديمة بأنه طبقي حدّد الدين قواعده ورسم بدّقة حدوده، ونظم علاقات كل طبقة من المجتمع[1].

وأوحت قوانين "**مانو**"أن البناء الطبقي هو الآخر مقدس ومصدره "**براهما**" نفسه وأن كل طبقة تمثل جزءا من أجزائه الخالدة، وعلى ذلك كان المجتمع ينقسم إلى أربعة طبقات هي:

1- طبقة البراهما وهم طبقة رجال الدين
2- طبقة الكشترية وهم طبقة المحاربين
3- طبقة الفياز وهم طبقة التجار والصناع
4- طبقة التودار وهم طبقة العبيد والأرقاء

[1]-إحسان محمد الحسن،عدنان سليمان الأحمد،ص 91-92

وعلى أساس هذا التقسيم يتفاوت أفراد المجتمع في المركز الاجتماعي والحرية الشخصية والسياسة والثراء[1].

وبعد المعاناة الشديدة للمجتمع الهندي من البراهمة، جاءت الديانة البوذية التي كان معظم تعاليمها الاهتمام بأمور الحياة العلمية وكذلك اهتمامها بالزهد فهي إلى جانب ذلك ذات طبيعة أخلاقية سلوكية، وما نستنتجه أن الفلسفة الهندية في جملتها اهتمت بالعالم الآخر هذا ما جعلهم أبعد الناس عن التفكير في الدولة والمدينة والحقوق والواجبات الاجتماعية. والذي نخلص إليه هو:

- ✓ هيمنة الفكر اللاهوتي الديني
- ✓ كان المجتمع الهندي مقسم إلى طبقات؛ إذ زعموا أن سلطة الحاكم مستمدة من سلطة الإله الأكبر؛ بمعنى أن الإله براهمي ومنه تولدت الحركة البراهمية وأهم مميزاتها ما يلي:
- ✓ تثبيت نظام الحاكم وحماية مصالح الطبقة الحاكمة وطبقة رجال الدين والدعوة إلى عدم تغيره.
- ✓ الزام كل طبقة بعاداتها وتقاليدها وبكل المعايير التي وضعها البراهما، وفي نفس الوقت التي ساد فيه العقيدة البراهمية ظهرت عقيدة أخرى مناهضة لها سميت بالعقيدة البوذية نسبة إلى بوذا ومن أهم الأفكار التي نادت بها البوذية القضاء على التفاوت الاجتماعي، المساواة في الحقوق والواجبات بين أفراد المجتمع.

4-الفكر الاجتماعي في الحضارة الصينية:

اهتمت الفلسفة الصينية بجوانب الحياة الاجتماعية عامة، والسلوك الأخلاقي خاصة، أما الاتجاهات في الفكر الاجتماعي الصيني القديم فكانت تتمثل في: الاتجاه الكونفوشي والاتجاه القانوني والاتجاه التاوي والاتجاه التعاقدي.

[1] ينظر، عبد الهادي محمد والي، تاريخ الفكر الاجتماعي،منتدى سور الأزبكية،2005-2006 ص68

فأما الاتجاه الذي ساهم في دراسة الكثير من القضايا الاجتماعية والسياسية والأخلاقية هو الاتجاه الكونفوشي والذي كان زعيمه الحكيم الصيني " **كونفوشيوس**" ومن الأفكار التي نادى بها؛ تمجيد النظام الإقطاعي وتقويته، واعتباره أساس البناء الاجتماعي والتنظيم الاقتصادي والسياسي كما أنه كان يدعو إلى النظام الطبقي فقد كان الإمبراطور وأسرته في قمة البناء الطبقي يليه الأمراء والنبلاء والأشراف، ثم السوقة وعامة الشعب في نهاية السلم الطبقي؛ وهو يرى أن هذا التقسيم الطبقي هدفه إحياء التقاليد الصينية القديمة بحيث كانت لكل طبقة من هذه الطبقات خصائصها وعاداتها وتقاليدها وطقوسها الدينية الخاصة[1].كما رأى أن السبيل الوحيد للإصلاح الاجتماعي هو إصلاح النظام الأسري في المجتمع، كما أولى للتعليم دورا اجتماعيا خلاقا في المجتمع، وخلاصة القول أن الآراء الكونفوشية مثالية أو يوطوبية حيث كانت تهدف إلى رسم ملامح مجتمع مثالي، وحكومة مثالية من كافة نواحيها[2].

ونخلص إلى مايلي:

قام الفكر الصيني على عدة اتجاهات فكرية هي:

- ✓ **الكونفوشيوسية** (الكونفوشيوس: المعلم، الفيلسوف، الحكيم)
- ✓ يعتبر الكونفوشيوس أول فيلسوف صيني يقيم مذهبا يتضمن كل التقاليد الصينية في السلوك الاجتماعي والأخلاقي، ففلسفته قائمة على القيم الأخلاقية، لُقِبَ بنبي الصين وقد أثرت أفكاره في المجتمع الصيني القديم وتتمثل هذه الأفكار في ما يلي:
- ✓ تمجيد النظام القائم ودعوته إلى الطبقية
- ✓ بقاء الفرد في الطبقة التي ينتمي إليها [ألا ينتقل من طبقة إلى أخرى].

[1] ينظر، المرجع نفسه، ص75

[2] - المرجع السابق، ص76

- ✓ **مذهب تاو:** وهي عقيدة ومذهب منسوبة إلى تاو وهو القانون السماوي الذي يقوم على المعرفة والتأمل الباطن وهذا يعني أن التاوية عقيدة للتصوف تمارس التقشف والزهد ولكنها ترفض التغيير.

خلاصة:

تعد حضارات الشعوب القديمة أول خطوة في تاريخ الفكر الاجتماعي حيث استفادة منها فلسفات أخرى، غير أن هذا الفكر كان مفككا ولم يكن مرتبط بمنهج علمي محدد؛ كان دائما يتصور ما يمكن أن يكون عليه المجتمع دون أن يهتم كثيرا بما هو كائن. فالسمات الغالبة في التفكير الاجتماعي القديم أنها كانت لديهم نظرة تأملية لاهوتية وفلسفية في التفكير حول المجتمع والعلاقات الاجتماعية ولم تكن منضبطة بمنهج علمي يبحث ويحلل في هذه الظواهر بمعنى أن الإنسان منذ القديم حاول معرفة مصادر سلوكه وبواعثها، غير أن مساعي الفهم خلال آلاف السنين كانت تعتمد على معارف وآراء متوارثة توارثها جيلا بعد جيل، وكثيرا ما كان يعبر عنها بآراء ومقولات دينية، أو باللجوء إلى الأساطير الشائعة، أو انحراف أو المعتقدات التقليدية[1].

[1]-سمير إبراهيم حسن، تمهيد في علم الاجتماع،ط1،دار المسيرة للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، ص 67